التراث المجهول

محمد شفيق

يكشف الاستـــاذ محمد شفيق فى مقاله هذا جانبا مهما من جوانب تراثنا القومى ، يتعلق (بالشعر البربرى) .

ويسعد مجلة «آفاق» ان تنبىء قراءها الكرام بأن الاخ الاستاذ محمد شفيق سيقوم بانجاز هذا الركن تباعـا فى المجلة .

« **اخى ! كن مزيغا تحالفك الايام !** »

« **تزوجى روميا، لقد باد الامازغ !** »

هذه ترجمة لبيتين شعريين بربريين ، بيتين رددتهما فى صغرى سنوات متواليـة دون أن اعرف لهما معنى ولا اعى لهمـا مغزى ؛ رددتهما فى لذة لم تحصل لى فيما بعد الا عند قراءة امهات القصائد من الشعر العربى او الشعر الفرنسى ؛ ثم اعرضت عنهما شيئا فشيئا حتى كاد النسيان يغشاهما فى ذهنى ، لان المدرسة قالت لى واكدت بان لغة الحياة هى الفرنسية ، وان لغة الادب والتاريخ والوطنية والدين هى العربية . وكاد النسيان يغشاهما فى ذهنى ويغشى معهما ابياتا اخرى وقصائد برمتها ، لان ابى كان يقول لى ويعيد «العسل ما هو ادام والشلحة ما هى كلام ! » لكنى مع ذلك لم انس هذين البيتين ، وان تناسيتهما ، لانهما لم يستقرا فى ذهنى فحسب ، لكن استقرا فى ذهنى وقلبى ، ولا شك انهما يسريان فى الجسم مع الدم ؛ ولا غرو ، اذا رضعت مع اللبان ما يحتويان من لفظ وتشربت نفسى بما يحملان من معنى .

وفيما كنت ذات يوم اتحدث الى شيخ وقور من شيوخ الاطلس اذا به

يسوق فى حديثه البيت الاول من هذين البيتين ، مستشهدا به على راى يبديه . قال الشيخ :

« اخى ! كن مزيغا تحالفك الايام ! »

فأردفت دون سابق تفكير :

« تزوجى روميا ، بنيتى ، لقد باد الامازغ !»

فغضب الشيخ ونظر شزرا الى ، ثم قال : أراك تخلط بين اقوال الشعراء وتحفظ من الشعر ما لا يغنى !»

قلت : «أخبرنى ! من قال بيتك الذى أنشدته ، وبأية مناسبة قاله؟»

قال : «.. أخبرك ! وبالذى قال بيتك أنت ايضا ..»

فعلمت ان البيت الاول قيل اثر معركة الهرى (I) الشهيرة ، تلك المعركة التى خاضتها قبيلة زايان ضد الجيش الفرنسى . قال الشاعر ذلك البيت ضمن قصيدة مطولة أشاد فيها بذكر «الامازغ» ونوه بشجاعة المحاربين اذكاء لحماسهم الدينى والقومى معا ، اذ لم تكن الحرب قد انتهت بعد .

انشد ذلك البيت اذن فى ايام عز وافتخار واعتداد بالنفس ونخوة ونشوة ، فجاء صورة صادقة للظروف التاريخية التى قيل فيها . وهذه الظاهرة ملموسة فى الشعر البربرى الحماسى كله . فانظر معى الى البيت الثانى :

« تزوجى روميا ، بنيتى ، لقد باد الامازيغ !»

الامازغ هم البربر كما هو معلوم . وقد قيل هذا البيت فى غضون السنوات الخمس التى تغلبت فيها جيوش الاحتلال على المقاومة القبلية تغلبا «نهائيا» ، فيما بين سنة 1930 وسنة 1935 ، فردده الناس من رجال ونساء ، وردده الاطفال فى سذاجة الصبا ، وتأفف لسماعه الشيوخ وبكت

(I) دارت معركة الهرى فى احد ايام اكتوبر من سنة 1913 ، من طلوع الشمس حتى الزوال ؛ والهرى اسم قرية صغيرة تبعد عن خنيفرة باثنى عشر كيلومترا نحو الجنوب . وقتل خلال المعركة 650 جندى فرنسى من بينهم 40 ضابطا .

عند ساداة العجائز . ألست ترى فيه صورة لروح اليأس والاستسلام ؟

« تزوجى روميا . . . ! »

كيف يجوز لمسلم متشبث بدينه متعصب له ان يوحى الى ابنته ان تتزوج «برومى»؟ أليس فى ايحائه نغمات تحسر وزفرات ألم ما بعده من ألم ؟ ألا يذكرك هذا البيت ببيتى ابى البقاء الرندى اذ يقول :

وطفلة مثل حسن الشمس اذ طلعت ... كأنما هى ياقوت ومرجـــان !
يقودها العلج عند السبى مكرهـة ... والعين باكية والقلب حيـران !

فهذا الاب يتألم بالفعل اذ

«... قد باد الامازغ ! »

فقد دافع هذا الرجل عن كيان قومه بجميع ما كان لديه من القوى وما كان لديه من الوسائل وما لم يكن ؛ دافع حتى لا يختلط الامازغ بالروم. ولكن ! لكن قضى الامر ، فغلبت الروم ، و«باد الامازغ» . والامازغ فى ذهن ذلك الرجل قد بادوا واندثروا ، لا فى المجاز فحسب بل فى الحقيقة والواقع : انهم بادوا معنويا ان لم يبيدوا ماديا وتاريخيا . فليتم اذن ما قد تحتم ! ولتتزوج ابنته البربرية الاصلية من رومى دخيل أعجم ، اذ لم يبق لها من بنى جنسها رجل يستحق زواجها . والرومى احق بها بما انه هو الذى اباد قومها ... ولعل فى هذا البيت تفسيرا لسلوك كثير من البربر اثر انهيار مقاومتهم . والبربرى لا يحب اوساط الامور فيما يرجع لسلوك البشر ...

ايها القارىء الكريم ، ان فى الادب البربرى المتين من القصائد والآلاف من الابيات، هى لسان حال قوم من صميم الامة المغربية، بل هو قاعدة الامة المغربية وركنها . فقد اتاحت لنا مجلة «آفاق» الغراء الفرصة لنطلـــع جميعا على هذا الادب الغنى بما استودعـــه الشعب المغربى من الاحزان والافراح وما ضمنه من آلام وآمال . فلنعرض فى كل عدد من مجلتنا نموذجا من ذلك الادب المجهول الذى يكمن فيه جانب من تراثنا يتصل بالاعماق ، اعماق النفسية المغربية ؛ جانب لو صقلناه وجلوناه لالقى على العقلية المغربية اضواء من شأنها ان تساعدنا على معرفة انفسنا ، وما اصعب معرفة النفس! فالى الاعداد المقبلة من «آفاق» ، والسلام .